

زلّت الذاكرة اللبنانية: لاجئون ومُخيّمات أم إرهابيون وأوكار؟



«كنت وزوجتي لوحدها في المنزل. وفجأة دخل علينا عدد كبير من الأشخاص الموزعين بين رجال ونساء وأطفال، وتوجهوا إلي بالقول: "بدنا ننام..."»

في التاسع من كانون الثاني ٢٠١٥ نشرت يومية لبنانية بادت لزمان قريب، (السفير)، افتتاحية بقلم معلق سياسي مشهود له بحسن الاطلاع

عنوانها «ماذا رأى درباس في "المنام" وكيف فسّره؟». أما درباس المقصود فوزير الشؤون الاجتماعية اللبناني، رشيد درباس، بين شباط ٢٠١٤ وكانون الأول ٢٠١٦، وأما ما رآه في المنام فالتالي: «كنت وزوجتي لوحدها في المنزل. وفجأة دخل علينا عدد كبير من الأشخاص الموزعين بين رجال

ونساء وأطفال، وتوجهوا إلي بالقول: "بدنا ننام..."، ثم ما لبثوا أن أخذوا غرفة النوم، ما اضطرني الى أن أطوي نفسي حتى أنام في سرير للأطفال. بعد ذلك أنزلتني زوجتي الى خيمة في الشارع للإقامة فيها [...] لكن فجأة، ارتفع صوت هاتفاً: "ممنوع الخيم..."». ويفسر درباس نفسه، على ذمة

المعلق الراوي، حلمه فيخلص إلى «أن منسوب النزوح ارتفع الى حد أغرق لبنان».

ولا يظنن أنَّ منام الوزير بالأمر الفذ أو بالشعرة في العجينة. فبشهادات لا تكاد أن تعد أو أن تُحصى، تتقدمها تصريحات يتبارى أهل الحل والعقد اللبنانيون في الإدلاء بها، لا مستثنياً بعض الدينيين منهم، ولا تتأخر عنها فسبكات المواطنين «العاديين» وتغريداتهم، بالعربية وبسواها من اللغات، ولا يخلو أن تمثل عليها بين الحين والآخر يافطة هنا تدعو «السوريين» إلى عدم التجول بعد حلول ساعة معينة، أو شريط بالصوت والصورة يوثق إهانة «سوري» هنا أو ضرب آخر هناك، — بكل هذه الشهادات يمكن القول إن «رأياً عاماً» لبنانياً، عابراً إلى حد بعيد للمناطق والطوائف، يرى إلى «السوري» على أنه، في أحسن الأحوال، طفيلي أشعبي مُختلس يُزاحم أهل الدار على مآكلهم ومشربهم وأسرتهم وأشغالهم وبنيتهم التحتية وكهربائهم وأنايبِ صرفهم الصحي، وحتى على أعراضهم — إنَّ «رأياً عاماً» هذا شأنه بات جزءاً لا يتجزأ من المشهد اللبناني، وفوق ذلك بات يحظى بقدر لا يستهان به من المَقْبُولِيَّة الصامتة أحياناً الناطقة في أكثر الأحيان.

بطبيعة الحال، لم ينبت هذا الرأي العام نَبَتَ الفَقْع في الصحراء على إثر شتوة في

غير موسمها. بل لا مبالغة في القول إنَّ هذا الرأي العام هو من جنس الزراعات المأنوسة المروية التي لا تنمو وتزهر إلا بأن تتعهد لها يد الرعاية!

لقد يكون في يوم من الأيام أن تأخذ الحمية أحداً ما فيكتب سيرة تفصيلية لنمو هذا «الرأي العام»، وازدهاره، على ضوء ما تدحرجته الأوضاع في سوريا وفي لبنان — في سوريا من أول اندلاع الثورة، إلى تحولها التدريجي نزاعاً أهلياً فتح الباب أمام تحول سوريا نفسها إلى ساحة تنافس إقليمي ودولي معلن، وفي لبنان حيث جَدَّدَ اندلاع الثورة شباب انقسام سَبَقَ إليه اللبنانيون منذ عام ٢٠٠٥ بين المؤيدين لنظام الاستبداد في دمشق وبين المعارضين له، وحيث لم يلبث هذا الانقسام أن خبا مع خبو الثورة وحلَّ محله ما يشبه العماء الجماعي عن الأسباب التي أدت بالسوريين إلى الوفود إلى لبنان، وحلت محله وَسَوَسَةٌ لا تقل جماعية موضوعها الأثقال الأمنية والاقتصادية والاجتماعية التي ينوء بها هذا الوفود على الكاهل اللبناني.

إلى أن تُدَقَّ ساعة هذا اليوم، والأرجح أنَّها لن تدق إلا بعد فوات الأوان، أي متى تطلق البوم لأجنحتها العنان وتمضي في عتمة الليل مسرحاً أبصارها لتتفقد الخراب وتحصيه، — إلى أن يكون ذلك

كذلك، جرح وملتهب، فليس بسبب من وفود مئات الآلاف من السوريين إلى لبنان، هرباً من بطش نظام مستبد، أو طلباً للسلامة من ويلات الحرب، أو شرّاً من هذا وذاك، تهجيراً لهم من قراهم ومن دساكرهم، على أيدي لبنانيين، وإنما لما تخاذله اللبنانيون أنفسهم، من يوم أن انتهت «الحرب»، حربهم الأهلية مهما ألقوا بمسؤوليتها على آخرين، عن الكشف على هذا الجرح وتفقدته والسعي إلى تطيبه.

لقد يبدو في هذا القول شيء من العبث، بل من المجانة، إذ كيف يستقيم أن تُزَانَ في الميزان نفسه كتلة بشرية قابلة، بقضها وقضيضها، للإحصاء عددًا، وقطعةً من تاريخ بلد وذاكرته؟ للوهلة الأولى، لا موازنةً ممكنةً ولا قياساً، ولكن متى ترجم المرء مصطلح «مخيمات»، ومتى ما ترجم ما أسميناه تساهلاً «التخاذه اللبناني» خلال السنوات التالية على انتهاء الحرب الأهلية عن مراجعة ما أدّى بلبنان إلى هذه الحرب، إلى معانيهما اللبنانية، لوجد أن الموازنة ممكنة وأكثر.

فمن يُدقق النظر إلى مصطلح «مخيمات» يرى أنه اكتسب على مر سنين الحرب ومن بعدها جملة من المعاني يحيل معها إلى مجموعة من الرهابات في الطليعة منها الرهاب من اختلال ميزان القوة بين

وتوضع سيرة جامعة مانعة لهذه المرحلة من حياة «الرأي العام» اللبناني، لا حاجة إلى كثير من التمحيص ليتبدّى، لكل ذي عينين وأذنين، أن «اللجوء السوري» إلى لبنان يُخاطب، في عداد أمور أخرى، سابقة «اللجوء الفلسطيني» إليه. وبخلاف ما قد يتهيأ لكثير من اللبنانيين فإن هذه المُخاطبة ليست شأنًا سوريًا ولا شأنًا فلسطينيًا بل هي شأنٌ لبناني يُضاف، في المحلّ الأوّل، إلى رصيد نزاعاتهم الجارية.

وإن يكن الكلام على «اللجوء السوري» إلى لبنان من حيث أكلافه الباهظة، (بصرف النظر عن صحة الأرقام التي يتوسل بها البعض وصحة تأويله لها على معنى الغُرم المطلق)، ومن حيث رफده لـ«الإرهاب» قد استعلى على سواه من كلام، فليس لعاقل أن ينسى بأن مدار الكلام على هذا اللجوء، لأعوام قليلة خلت، إنما كان على وجاهة الدعوة إلى إنشاء مخيمات لإيواء اللاجئين السوريين إلى لبنان، أو خطل هذا الرأي.

لا محلّ، في هذا المقام، للعودة إلى تفاصيل ذلك السجال، وإلى التذكير بمنّ اللبنانيين كان من مؤيدي الدعوة ومنّ منهم كان من المعارضين لها. حسبنا من الأمر ما لا يُجادل فيه أحدٌ من أن مجرد الهمس في أذن لبنانية بلفظة «مخيمات» هو كالحكّ على جرح ملتهب. وإذ هو

هذه الثورة أن التجأ الآلاف من السوريين إلى لبنان.

حاشا أن يفهم ما ما تقدم على معنى المرافعة المتأخرة عن الدعوة إقامة مخيمات لإيواء اللاجئين السوريين بوصفه الوصفة السحرية لمرتبات اللجوء السوري إلى لبنان على «السلم الأهلي». وفي أية حال، فلقد سبق السيف العذل ولا معنى اليوم، عملياً وموضوعياً، لأية دعوة من هذا القبيل كما أنه لا سبيل بعد إلى تدبر اللجوء السوري إلى لبنان باعتباره «مضافاً إليه». اللجوء السوري، عاد هؤلاء اللاجئين إلى ديارهم أم أقاموا بين ظهرانينا، بات، في عداد أوصافه الأخرى، شأننا داخلياً لبنائياً وقضية خلافة بين اللبنانيين فمبروك مبروك و«لئن شكرتم لأزيدنكم»...

الجماعات الطائفية اللبنانية باعتبار الفاضل العددي الذي تمثله الجماعة اللاجئة، وهو رهاب تتفرع عليه رهابات ليس أقلها أن استعلاء هذه الفئة من اللبنانيين، بقوة اللاجئين المُفترضة، قد تُضيق لبنان على لبنانيين آخرين وتؤدي بهم إلى الضرب في بلاد الله الواسعة أي إلى اللجوء! ومتى ترجم المرء ما أسميناه تساهلاً «التخاذل اللبناني» خلال السنوات التالية على انتهاء الحرب الأهلية عن مراجعة ما أدى بلبنان إلى هذه الحرب – متى ما ترجم هذا «التخاذل» إلى ما كان عليه حقيقة لما وجد مفراً من الاعتراف بأنه كان انتهازاً من بعض اللبنانيين، على حساب لبنانيين آخرين، للفرص وللمغانم التي رافقت، إنهاءً للحرب، وضع لبنان تحت «الوصاية السورية» – أي تحت وصاية النظام الذي ثار ناسه عليه عام ٢٠١١، وكان من مفاعيل ما تدرجته